﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ٤﴾ [الحجر: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا توعّدهُم بما يحِلُّ بهِم؛ أردف ذلك بما يُشعِرُ بهلاكِهم، وأنّهُ لا يُستبطأُ، فإنّ لهُ أجلًا لا يتعدّاهُ[1]، وأيضًا لَمّا تَوَعَّدَهُم بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وكان من أبرز صفاتهم الاستعجال بالعذاب تكذيبًا واستهزاء، فكأنَّ أولئك الكَفَرَة قد سألوا الاستعجال بالعذاب، فجاءت هذه الآيةُ جوابًا لهم؛ لِيُفِيدَ أنَّ لهم أجلًا في إهلاكِهم بكتاب معلوم مؤقَّتٍ لا بُدَّ من بلوغهم له[2]، كما حدث مع الأمم السابقة قبلهم، وقد رأوا بعض ذلك، أو سمعوه.

ربط بين التّعريض بالانشغال بالملذّات، وتأكيد أنّ الوعيد بالإهلاكِ لا يتخلّف

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[3]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا: إذا ماتَ، أو فَنيَ، فهو هالِكٌ[4]، والإهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإفناؤُهُ وإماتَةُ الحَيِّ[5]، والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبَتُهُ إلى الهَلاكِ[6]، وتُطلَقُ أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِهِ، ومَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيث لا يُدْرَى أيْنَ هو[7]. والمقصود بالإهلاك في الآية: الاستئصال والإفناءُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قرَّر اللّه تعالى أنَّ هلاكَ الأُمم الظّالمة، موقوتٌ بوقت محدد في

كُلُّ مَن ماتَ أو قُتِلَ، إنَّما ماتَ بالقضاءِ والأجلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/82.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلك).
(7) المطرزيّ، المعرب: (هلك).

علمه، وأنَّ سُنَّتَهُ في ذلك ماضيةٌ لا تتخلَّف، فقال: وما أَهْلَكْنا يا رسول اللّه ﷺ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِن القُرى الَّتي أهلكنا أهلَها فيما مضى إلّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه، فإذا بَلَغوهُ؛ أهلكناهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الجملة الخبريّة، في فهم السّياق المحكم:

التَّحذير من التَّمتع بالحياة الدّنيا، والإعراضِ عن الآخرة

في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾، أنّه لَمّا كانت الآيةُ السّابقةُ على معنى الوعيد والتَّهديد - كما تقدَّم - أفادت الجملة الخبريَّة هنا تأكيد الوعيد؛ لِيُفيدَ هذا التَّأكيدُ تقريرَ الزَّجرِ والتَّحذيرَ[2] من عاقبة سوء مرتكبِهم بإعراضهم عن الإيمانِ وانشغالِهم بالأكل والتَّمتُّع بالحياة الدُّنيا عن الآخرة.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾:

الأمم الكافرة مُمَتَّعَةٌ قَبلَ العذابِ، مَأْخوذَةٌ به عِنْدَ وقوعِه

قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾، هذه الواو اعتراضيَّةٌ، والجملة اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ؛ لِأَنَّ في هَذِهِ الجُمْلَةِ حُكْمًا يَشْمَلُهُمْ، وهوَ حُكْمُ إمْهالِ الأُمَمِ الَّتي حَقَّ عَلَيْها الهَلاكُ، أيْ: ما أهْلَكْنا أُمَّةً إلّا وقَدْ مَتَّعْناها زَمَنًا، وكانَ لِهَلاكِها أجَلٌ ووَقْتٌ مَحْدودٌ، فَهيَ مُمَتَّعَةٌ قَبْلَ حُلولِهِ، وهيَ مَأْخوذَةٌ عِنْدَ حلوله[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

موتُ الكافرِ، نوعٌ من الإهلاكِ له بالعذاب

لَمّا كان الكلامُ في سياق المؤاخذة على الإعراض عن الإيمان وعن دعوة الرَّسول ﷺ؛ أفاد أنَّ المرادَ من الإهلاك العذابُ والإفناءُ بسوء العملِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يدخل فيه الإهلاكُ بالموت؛ لأنَّه لَمّا حذف المصدر المبيِّن لنوعِ الإهلاك، فلم يَقُلْ ما معناه: (وما أهلكنا من قريةٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.

إهلاكَ عذابٍ)؛ دلَّ على عموم الإهلاكِ، فيكون المرادُ من الهَلاكِ مَجْموعَ الأمْرَيْنِ: نُزولَ عَذابِ الاِسْتِئْصالِ ونُزولَ المَوْتِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما يُشارِكُ الآخَرَ في كَوْنِهِ هَلاكًا، فَوَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى القَدْرِ المُشْتَرَكِ الَّذي يَدْخُلُ فيهِ القِسْمانِ مَعًا، والمعنى: وما أهلكنا من قرية إهلاكَ تعذيب أو إهلاكَ موتٍ[1].

التَّعبير بضمير الجمع (نا)، في: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

لِيُفيدَ تَعْظِيمَ العذابِ وتَفْخِيمَهُ بما يدلُّ عليه الضَّمير من تعظيم الملك الواحدِ الأحدِ[2]. فإهلاكُ اللّه للأمم الكافرة، يقينٌ بأنْ سيفعلُ بها فاقرة.

مناسبة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

لم يَقُلْ: (وما نهلك من قريةٍ)، بل جاء بصيغة الماضي لإفادة تحقُّق وقوع الإهلاكِ بالوقتِ المعلوم الثابتِ عندَه تعالى؛ لأنَّ الآيةَ لَمّا كانت على معنى التَّهديد والوعيد للقوم الكافرين وقتَ نزول القرآن إلى قيام السّاعة من أنَّهم إنْ كفروا، وأعرضوا عن القرآن، فسيصيبهم ما أَصاب الذين أهلكناهم في القدرِ المحدَّد لهم، كان القياس على أمرٍ قد ثبتَ وقوعُه أشدَّ تهديدًا ووعيدًا للمخاطَبين المستبطئين العذابَ، المستهزئين به، وأثبتَ حجَّةً عليهم، وأبلغَ عبرةً لهم.

القياسُ على إهلاكِ الماضين، أشدُّ تهديدًا لِلمستهزئين بالعذاب المهين

دلالة مجيء ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ النصَّ على استغراقِ عموم أجناس القرى، وعموم الأفراد في كلِّ القرى؛ ليشملَ الحكمُ كلَّ ما يطلقُ عليه قريةٌ، كما أفادَ تأكيد الحكم، والمعنى: وما أهلكنا أيَّ قريةٍ من القرى[3].

تأكيد حكم الاستغراق بحرف الجرِّ (مِنْ)

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في السّياق:

إهلاكُ القرى باستئصال النّاس ومساكنِهم، من عذاب الله العادل

لَمّا كانت القرية اسمًا للسُّكّانِ في مسكن مجتمع، أو اسمًا للموضع الذي يجتمع فيه النّاس؛[1] دلَّ على أنَّ الإهلاكَ يقع على الموضع، وعلى النّاس الذين يسكنون فيه؛ للإشعارِ بالاستئصال وعِظَم إهلاكِ الله تعالى.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾:

توقيت إهلاك القرى سابقٌ على زمنِ وقوعِه

تَحْتَمِلُ الواو أنْ تكون حاليَّة، وتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ حالًا من ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال من النَّكرة وقوعها في سياق النَّفي لدلالتِها على العموم، ونكتة مجيء واو الحال هنا: أنَّها أفادت أنَّ الحالةَ التي بعدها في اللفظ هي في الزمنِ قبل الحالةِ التي قبل الواوِ، بمعنى: أنَّها دلَّت على أنَّ الأجل المعلوم مقرَّرٌ مؤقَّتٌ سابقٌ تقديره على زمن نزولِ الإهلاك، مستمرٌّ إلى وقوعِ الهلاكِ، وأجاز الزَّمخشري وغيرُه أنْ تكون الواو داخلةً بين الصفة والموصوف متوسِّطةً بينهما؛ لتأكيد لصوقِها بالموصوف وتقويتِه، فتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وساغ دخول الواو لَمّا كانت صورة الجملة هاهنا كصورتها؛ إذا كانت حالًا، فتكون الآيةُ مفيدةً الحصرَ مع التَّأكيد[2].

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿كِتَابٞ﴾:

الأجل المحدود عندَ الله ثابتٌ، لا يقبل الزّيادة والنَّقص

لَمّا كان الكِتابُ في الآية بمعنى الأجل المكتوب، في كتاب المَحْدودِ عِنْدَ الله؛ كان التَّعبير به على طريق الاستعارة التّصريحيَّة، بتشبيه الأجل المحدود بِالكِتابِ، في أنَّهُ لا يَقْبَلُ الزّيادَةَ والنَّقْصَ في الوقتِ وفي نوعِ الإهلاكِ، وفيما يصيبُهم بالإهلاكِ، وفي أنَّه ثابتٌ مقرَّر[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قري).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

دلالة الكِتاب المَعْلومِ في سياق الآية:

لا ينبغي للعاقل أنْ يغترَّ بالإمهال، فالله يمهل ولا يهمل

أفادت الجملة الحالية أو جملة الوصف - على التَّوجيهين - أنَّ تقديم الإهلاكِ وتأخيرَه إنَّما يقع على وفقِ الكتاب المعلوم المحدَّد، فآذنَ الكلامُ أنَّ الَّذينَ تَقَدَّموا في الإهلاكِ كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُعَجَّلًا، والَّذينَ تَأخَّروا كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُؤَخَّرًا، ففيه تهديدٌ وزجرٌ للنّاس عن استبطاءِ الإهلاكِ والغفلةِ والرُّكون إلى الدنيا، فلكلِّ أجلٍ كتابٌ(1).

دلالة الضّمير في قوله: ﴿وَلَهَا﴾:

المبالغة في إهلاكِ القرى الكافرة؛ ليكون على جهة الاستيعابِ

لَمّا كان قوله: ﴿كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يفيد أنَّ زمن وقوع إهلاكِ أيِّ قريةٍ مكتوبٌ معلومٌ، ولَمّا كان الظّاهرَ عودُ الضَّمير في ﴿وَلَهَا﴾ إلى ﴿قَرْيَةٍ﴾؛ كان تقديرُ الكلامِ: إلّا وللقرية كتاب معلومٌ في الإهلاكِ، ففيه مبالغة في الإهلاكِ على جهةِ الاستيعاب بنسبة الكتاب المعلوم إلى القرية، كما أجاز بعضُ المفسِّرين أنْ يكون الضَّميرُ عائدًا إلى القرية مع حذف مصدرٍ مضافٍ مفهومٍ من الفعل ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والتقدير: إلّا ولإهلاكِ القرية كتابٌ معلومٌ.

دلالة صفة الأجل في قوله: ﴿مَّعْلُومٌ﴾:

الأجل المعلوم لا يُنسَى، ولا يُغفلُ عنه، وما منه مفرّ

لَمّا كان الكتاب بمعنى المكتوبِ في اللوح المحفوظ، لِيُفِيدَ أَنَّه ثابتٌ ومعلومٌ عند اللّه تعالى؛ دلَّ مجيء الصِّفة المقيَّدة للموصوف النَّكرة، على دفعِ توهُّم أنَّه قد يُنْسَى أو يُغْفَلَ عنه، فقال: ﴿مَّعْلُومٌ﴾، والمعنى مكتوبٌ مقدَّرٌ لا يُنسى، ولا يُغفل عنه حتى يُتصوَّرَ التخلفُ عنه بالتقدُّم والتأخُّر، كما أفادت الصِّفةُ تأكيدَ الموصوف وتقريرَه لِما يدلُّ عليه الموصوف من كونِ المكتوبِ معلومًا عندَ اللّه تعالى(2).

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/119.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.

دلالة الاستثناء:

تأكيدُ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ أفاد مجيء ﴿إِلَّا﴾ بعدَ الاسمِ النَّكرة في سياقِ النَّفي أنَّ الاستثناء من عمومِ الأحوالِ[1]، وتقدير الكلامِ: ما أهلكنا قريةً من القرى في أيِّ حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ أنْ يكون لها كتابٌ، أيْ: أجلٌ موقَّتٌ لِمَهلَكِها قد كتبناه، لا نُهلِكُها قبل بلوغِه، والكتابُ معلومٌ لا يُغفل عنه حتى يمكنَ مخالفتُه بالتقدُّم والتأخُّر، لِيُفيدَ الاستثناءُ من عمومِ الأحوالِ تأكيدَ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ.

دلالة أسلوب الحصر بالنّفي والاستثناء:

الهلاك محصّلة تدلّ على ضلال السّعي، وفساد المسلك

لَمّا كان الذين يأكلون، ويتمتَّعون، ويشغلُهم الأمل عن اتِّباع رسولِ اللّه ﷺ، وما أنزلَ إليه في حكمِ من يعتقد أنّه لا يَنْزِلُ بهم العذاب، ولا يصيبهم الهلاك، وهم منكرون للوعيدِ، وكانوا في انشغالِهم باللذّات في حكم من يُصِرُّ على اعتقاده الخاطِئ، فجاء الكلام على طريق الحصر بـ (ما وإلّا) في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ للإيذانِ بخطئهم فيما يستهزِئون به من وقوع العذاب بهم، وبأنَّهم مُصِرّونَ على الخطأ بسوء أعمالِهم وطولِ أملِهم في الدُّنيا[2].

توجيه المتشابه اللّفظي:

المقامُ في سورة الحِجر يقتضي النَّسق بالواو، أو الحالية، ولكليهما معنى، يدعمه ويجلّيه

قال اللّه تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾، فجاء بالواو بعدَ ﴿إِلَّا﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208]، من غيرِ واو، والسَّبب هو أنَّه لَمّا كانت الواو تفيد مزيد ربط واجتماع في الحال وفي الوصف على التَّقديرين في تأويل الجملة، أيْ: سواء قُدِّرَت الجملتان ﴿وَلَهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

كِتَابٌ مَّعۡلُومٞ﴾، و﴿لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208] حالًا أو وصفًا؛ أفادَ أنَّ المقامَ في سورة الحِجر، يقتضي النَّسقَ بالواو، وذلك أنَّ قوله: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾ صفة لازمة للقرية، فإنَّ الكتّبَ في اللّوح وصف أزلي ثابتٌ، فناسب أنْ يكون في اللّفظ ما يدلُّ على تأكيدِ اللزوم واللُّصوق وهو الواو، وإذا كانت الواو حالية؛ فيناسبه أيضًا في سورة الحِجْرِ للإيذانِ بأنَّ جملة الحال التّي جاءت بعد الواو في اللّفظ هي في الزّمنِ قبل الحالةِ التّي قبل الواوِ كما تقدَّم قريبًا[1].

(1) النيّسابوريّ، غرائب القرآن: 5/286 - 287.